الرفض الفطري في الإنسان

ميشال السمراني

سؤالٌ أحارُ في أمره، لماذا في مناحي الحياة عامة نقابل أفراداً ذي نزعة رفضية؟! إذا ما طرحت عليهم سؤالاً ما أو بضعة أسئلة، تجد أنَّ نسبة الإجابات السلبية، أي إجابات النفي تفوق الإجابات الإيجابية.

إذا ما قدَّمت موضوعاً جديداً أو فكرة جديدة لأحدهم، تجده فوراً ومن دون محاولة تفكير في الموضوع، يرفضه رفضاً قاطعاً. إذا ما التقيت بشخص ما للمرة الاولى، تجده يبحث عن السلبيات في نفسك قبل الإيجابيات. وإذا ما سألت أحدهم عن رأيه بأحد معارفكما، تراه يعدد لك عيوبه قبل محاسنه، هذا إن أتى على ذكر المحاسن والصفات الإيجابية.

تُرى، لمَ هذا الرفض الفطري في الإنسان؟ ما مصدره؟ وكيف يتوالد في الفرد؟

علوم باطن الإنسان، تُعلِمنا أن الإنسان كيان مؤلف من سالب وموجب، كون طبيعتَه مزدوجة بين باطن وظاهر، ولأن الإزدواجية هي أساس وجوده المادي. كما أن هناك إزدواجية سلبيات وإيجابيات...

لكن لماذا يرى بعضهم السلبيات ويبحث عنها ويعمل من خلالها أكثر مما يعمل من خلال الإيجابيات؟

علم النفس لا يجيب عن هذا التساؤل بوضوح. فهو يقول بإنَّ في الإنسان «ازدواجية» وعي ولاوعي، واللاوعي يحوي السلبيات، فيما الوعي يحوي الإيجابيات الى جانب السلبيات، وإنَّ الإنسان قد يميل الى تحقيق رغبة اللاوعي، أو هو يتصرف من خلال عقل أو وعي الباطن، أو اللاوعي لا شعورياً منه.

وإذا ما سألنا: لماذا يحوي وعي الباطن السلبيات؟ يجيب أنَّ وعي الباطن، أو اللاوعي أو اللاشعور يشكل مجموعة الأمنيات والمشاعر والأفعال التي لم يستطع المرء تنفيذها في حياته. لذلك، لا ينفك عقل الباطن يستيقظ بين حين وآخر، محاولاً تحقيق رغبته من خلال وعي الظاهر.

لكن، هل صحيح أن جميع الأمنيات والمشاعر والأفعال التي لم يستطع الانسان تحقيقها هي سلبية؟ وهل صحيح أنَّ وعي الباطن يحوي فقط الأشياء السلبية؟!

لم أقتنع كثيراً بما أقرَّه علم النفس، لأن المنطق لم يقبل فكرة السلبية التي يتصّف بها وعي الباطن.

رحتُ أطالع في سلسلة مؤلفات علوم الباطن الانساني (الايزوتيريك) لأبحث عن تفسير معقول لهذا الرفض الفطري في الانسان، والذي ينمو معه منذ الصغر. فلو أن علم النفس على حق، لما كانت نسبة كبيرة من الأطفال يحملون أيضاً هذه السلبية الرفضية، فوعيهم الباطني لم يسجل شيئاً بعد في داخله!

علوم الإيزوتيريك تشرح الأمر بالتالي: الانسان لم يُفطر على الرفض، لكنه هو من فطر نفسه عليه بسبب عدم حماسته ونشاطه لاكتشاف الجديد. فإنغلاقه على كل جديد، وتمسكه بالتقاليد البالية والموروثات، إضافة الى السلبيات المتراكمة في نفسه، وتعلقه برأيه ونظرته الى الأمور، وعدم محاولته الخروج عن كل ما هو تقليدي، بائد، مضى الزمن عليه، ذلك كله يجعل من نفسه، وعياً أو لاوعياً منها، ترفض كل ما هو جديد ومتجدّد، مما يحول دونه ودون الانطلاق خارج الدائرة الضيقة التي أسر نفسه فيها، بالتالي عدم تطوير وعيه. وأفضل وسيلة للتأكد من ذلك كله، ومن أي نظرية علمية، هي في التطبيق العملي. يكفي أن تراقب شخصين، أحدهما منفتح على كل ما هو جديد، يحاول استطلاع الآراء والاطلاع على الاكتشافات الحديثة، وتقصّي العلوم المتجددة؛ والآخر منغلق على نفسه وعلى القديم، غير مبال بل رافض كل جديد؛ ستجد أن الأول يحيا حياة هانئة سعيدة، أكثر تطوراً من حياة الثاني. وان مستوى تطوّر الأول في الحياة العملية والاجتماعية والخاصة، أرقى بأشواط من مستوى تطور الثاني.

من هنا يمكنك استنتاج مدى أهمية الانفتاح على كل جديد، والابتعاد عن الانغلاق والتعصب الأعمى للتقاليد، والتخلي أيضاً عن ذاك الرفض الفطري الذي أوجده الانسان في داخله منذ أجيال طويلة، ومازال متمسكاً به حتى اليوم. ويمكنك أيضاً مراقبة المناطق أو البلدان التي تتمسك بالتقاليد البالية والأعراف، وتقارن درجة تطورها بدرجة تطوّر البلدان المنفتحة والمتحررة من هكذا تقاليد.

لذلك، وفي ضوء ما تقدم، سأكتفي بدعوة القارئ الى التمعّن والمراقبة، والمقارنة، فالحياة هي الدليل الساطع على صحة ما جاء ذكره. وللقارئ وحده حق الاستنتاج واستخلاص الرأي والعبرة.

حقاً، لو أن الانسان يفكر لمدة ثوان فقط قبل إعطاء الحكم (أو أن يعد للعشرة كما يقول المثل الشعبي)، لكانت أمور كثيرة قد تغيرّت وتبدلّت، ولكان الانسان يعيش الآن في المستقبل ، بدل الماضي.